لاشك أنَّ النظر في حد الخطاب وما انتهى اليه بعض اللسانيين الغربيين والعرب ، لا يقطع الطريق امام من يريد أن يقف على مفهومه تبعا لنوع او صنف الخطاب ، ونحن هنا لا نجترَ الكلام نفسه في بيان حدود الخطاب ونجل منه مرادفا لمصطلح الخطاب النحوي، لذلك ذهبنا الى حد الخطاب النحوي وبيان ما يميزه عن غيره من انواع الخطابات ، فمن الممكن القول إنَّ الخطاب النحوي هو كلُّ فعلٍ قولي عن طريق الفم والاذن صدر عن ذوات عاقلة ناقلة لما تكلم به مستعمل اللغة، مُقلِّبةً وجوهه حكماً وعملًا او هو كل فعل كتابي عن طريق اليد والعين، انجِّز من ذوات عاقلة ناقة لما تكلم به مستعمل اللغة وجعلته ظاهرا مرئيًا مبسوطا ومختصرا، وجه الى مستمع أو قارئ لغرض امراً مقصودا مخصوصاً.

فقولنا " فعل قولي" هو المنقول رواية عن العرب، وقولنا : " عن طريق الفم والاذن" هو فم المخاطَب وسمعه بلحاظ " قال بعض العرب – قالوا – سمعت بعضهم – سمعنا من نثق بهم من العرب، وقولنا : " مُقلبة وجوه حكما وعملا" اي النظر في تصاريفه واحكامه، اما قولنا: " فعل كتابي" هو ماسُجل املاءً وكتابةً وتصنيفاً، وقولنا : "اليد والعين" بلحاظ ذات الخطاب التي صنفته ومتلقيه الذي سينظر فيه ، قال سيبويه : ((مما ستجده في الكتاب إن شاء الله عز وجل))(الكتاب :٢/ ٢٣٧) وقوله ايضاً : ((وقد بُيّن المفعولُ الذى هو بمنزلة الفاعل فى أول الكتاب)) (الكتاب : ١/ ٨٣) وقوله : ((وقد أوضحته في أول الكتاب بأكثر من هذا)) (الكتاب : ٣/ ٢٢١) وفي كتاب الاصول في النحو ((قال أبو بكر: وقرأت بخط أبي العباس في كتابه: أخطأ الرياشي في قوله: مخافة الشر ونحوه)) (الاصول في النحو :٢٠٩/١) وقال ابن جني : ((وأما ما تعقب به أبو العباس محمد بن يزيد كتاب سيبويه في المواضع التي سماها مسائل الغلط، فقلما يلزم صاحب الكتاب منه إلا الشيء النزر. وهو أيضاً - مع قلته- من كلام غير أبي العباس. وحدثنا أبو علي عن أبي بكر عن أبي العباس أنه قال: إن هذا كتاب كنا عملناه في أوان الشبيبة والحداثة، واعتذر أبو العباس منه)) (الخصائص: ٣/ ٢٩٠

اما قولنا مبسوطا ومختصرا فهذا ما تمثل بخطاب المتقدمين من النحوين ، قال المبرد في باب الفاعل : ((وسنضع من الْحجَج المستقصاة فِي مواضعهَا أكثر من هَذَا لأَنَّ هَذَا مَوضِع اخْتِصَار وتَوْطِئَة لما بعده إِن شاءَ اللَّه)) (المقتضب : ١/ ١٤٧) وقال ابن السراج في كتابه الاصول : ((وغرضي في هذا الكتاب ذكرالعلة التي إذا اطردت وصل بها إلى كلامهم فقط، وذكر الأصول والشائع؛ لأنه كتاب إيجاز.)) (الاصول في النحو : ٣٦/١

والخطاب النحوي خطاب مكتوب متصلٌ بسياقة معرب عن ذواته فهو سلوك تواصلي بين الذوات، قال ابن جني : ((وأنشد رجل من أهل المدينة أبا عمرو بن العلاء قول ابن قيس الرقيات:

إن الحوادثَ بالمدينة قد أوجعنني وقرعن مروتيه

فانتهره أبو عمرو، فقال: ما لنا ولهذا الشعر الرخو! إن هذه الهاء لم توجد في شيء من الكلام إلا أرخته. فقال له المديني: قاتلك الله! ما أجهلك بكلام العرب! قال الله -عز وجل- في كتابه: {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ} وقال: (يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ) فانكسر أبو عمرو انكساراً شديداً. قال أبو هفان: وأنشد هذا الشعر عبد الملك بن مروان، فقال: أحسنت يا بن قيس، لولا أنك خنثت قافيته. فقال يا أمير المؤمنين ما عدوت قول الله -عز وجل- في كتابه (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ) فقال له عبد الملك: أنت في هذه أشعر منك في شعرك)) ((الخصائص :٣/ ٢٩٦.

والخطاب النحوي خطاب مكرر قائم على التدوير وتتعاقب عليه ذوات كثر و يدوم طويلا. قال ابن جني : ((وسئل الكسائي في مجلس يونس عن أولقٍ: ما مثاله من الفعل؟ فقال: أفعل . فقال له يونس: استحييت لك يا شيخ! والظاهر عندنا من أمر أولق أنه فوعل من قولهم: ألق الرجل، فهو مألوق؛ أنشد أبو زيد:

تراقب عيناها القطيع كأنما يخالطها من مسه مس أولق

وقد يجوز أن يكون: أفعل من ولق يلق إذا خف وأسرع؛ قال:

جاءت به عنس من الشأم تلق

أي تخف وتسرع، وهم يصفون الناقة -لسرعتها- بالحدة والجنون؛ قال القطامي:

يتبعن سامية العينين تحسبها مجنونة أو ترى ما لا ترى الإبل

والأولق : الجنون. ويجوز أيضاً أن يكون فوعلا من ولق هذه. وأصلها -على هذا- وولق. فلما التقت الواوان في أول الكلمة همزوا الأولى منهما، على العبرة في ذلك)) (الخصائص : ٣/ ٢٩٤-٢٩٥

ومثله ماروي عن الزبيدي وصاعد بن الحسن : ((فقال الزبيدي فما تحسن أيها الشيخ؟ فقال: حفظ الغريب. قال فما وزن أَوْلَقَ؟ فضحك صاعدٌ وقال: أمثلي يُسأل عن هذا ؟ إنما يَسأل عنه صبيان المكتب. فقال الزبيدي قد سألناك ولا نشكُّ انك تجهله، فتغير لونه، فقال: وزنه أَفْعل. فقال الزبيدي: صاحبكم ممخرق. فقال له صاعد: إخال الشيخ صناعته الأبنية؟ فقال له أجل، فقال صاعد: وبضاعتي أنا حفظ الأشعار ورواية الأخبار وفكُّ المعمَّى وعلم الموسيقى...)) (معجم الادباء: ٣/ ٢١٠)

ومثله تدوير خطاب سيبويه في المطولات النحوية قال سيبويه: ((وأمّا ما يَرتفع من هذا الباب فقولك: هو منّى فَرْسَخَانَ، وهو منّى عَدْوةُ الفَرسِ، ودَعْوةُ الرجُل، " وغَلْوةُ السهمِ "، وهو منّى يومانِ، وهو منّى فَوْتُ اليد. فإنَّما فارَقَ هذا البابَ الأوّلَ لأنَّ معنى هذا أنه يخبر أن بينه وبينه فرسخين ويومين، ودعوة الرجل، وفوتاً. ومعنى فوت اليد أنه يريد أن يقرِّبَ ما بينه وبينه. فهذا على هذا المعنى، وجرى على الكلام الأوّل، كأنَّه هو لسَعة الكلام، كما قالوا: أَخْطَبُ ما يكون الأميرُ يومُ الجمعة)) " الكتاب: ٢/ ٤١٥ وقال المبرد: ((وتَقول فِيمَا كَانَ من الْأَمَاكِن مُرْسلا أَنْت مني عدوة الْفرس وَأَنت مني دَعْوَة الرجل لِأَنَّهُ أَرَادَ بيني وَبَيْنك وَلم يرد أَنْت فِي هَذَا الْمَكَان فَإِنَّمَا يُنبئ عَن هَذَا مَعْنَاهُ ...))(المقتضب : ٣٤٣/١) و قال ابن السراج : ((قال سيبويه: أجرى مجرى: هو مني مكان كذا، ولكنه حذف. ودرج السيول ورجع أدراجه وقال: إنما يستعمل من هذا الباب ما استعملت العرب. وأما ما يرتفع من هذا الباب فقولك: هو مني فرسخان وأنت مني يومان وميلان وأنت مني عدوة الفرس وغلوة السهم هذا كله مرفوع لا يجوز فيه إلا ذاك وإنما فصله من الباب الذي قبله أنك تريد: ههنا بيني وبينك فرسخان ولم ترد أنت في هذا المكان؛ لأن ذلك لا معنى له، فما كان في هذا المعنى فهذا مجراه نحو: أنت مني فوت اليد، ودعوة الرجل))(الاصول في النحو:١: ٢٠٠) ، وقال ابن يعيش : ((الوجه الثاني أن يكون قولُه: "أخطب ما يكون" بمعنى الزمان، لأن "ما" تكون بمعنى الزمان، لأنّها في تأويل المصدر، والمصدرُ يُستعار للزمان على تقديرِ حذفِ مضاف، كأنه قال: "أخطبُ أوْقاتِ كونِ الأميرِ"، كما يُقال: "مَقْدَمَ الحاجّ"، و"خُفُوقَ النجْم"، أي: زمنَ مقدمِ الحاج، وزمنَ خفوقِ النجم. ويكون الخبرُ "إذا كان قائماً" على ما تقدّم، إلَّا أن "إذَا" على هذا في موضع رفع خبراً عن الأوّل، كما تقول: "وقتُ القِتال يومُ الجُمْعة". فكأنّه قال: "أخطبُ الأوْقات الَتي يكون الأميرُ فيها خطيباً إذا كان قائماً"))(شرح المفصل :١/ ٢٥٤) و قال ابو حيان الاندلسي : ((قالوا: هو مني فوت اليد، ودعوة رجل، وعدوة فرس بالرفع، والنصب؛ النصب على المحل، والرفع على ضمار القدر، وقيل: هو على تقدير بيني، وبينه فوت اليدي كما قدر في هو مني فرسخان (أي بيني وبينه) هذه المسافة، فلا يكون فيه النصب، وإذا أردت بقولك مني في: (زيد مني) أي من أتباعي قلت: فرسخين بالنصب، وتقدير سيبويه ذلك بقوله: أنت مني ما دمت تسير فرسخين، وتقدير غيره: ما سرنا فرسخين، هو تفسير معنى، والناصب للظرف هو العامل في مني (أي كائن من اتباعي) في هذه المسافة.))(ارتشاف الضرب : ٣/ ١١٣٠-١١٣١)

عناصر الخطاب النحوي

١= المخاطِب (المتكلم) هو فاعل يطلب الخطاب وجوده، وهو المتكلم "ينظر المؤلف لاندرو بنيت:٢٤" وهو المسؤول عن فكرة الخطاب أي كانت، فهو من يخطط وينشئ أو يؤلف أو يكتب، وهو في هذه الحال تكون له سلطة التأثير على المخاطَبين. وهو من يقبل عليه الأخرون بوجوههم و يجتهد كثيرا لغرض تحقيق هذا الاقبال ، لأنه يصف ويفسر ويأتي بالنظير.

والمخاطِب في الخطاب النحوي من الحضور والغيبة يقسم على قسمين:

الاول: المخاطِب غير الواقعي الذي لا يتحدد بزمان أو مكان و هو نتاج المخاطِب الصريح بلحاظ عائديه الاشارات اللغوية الى ذات الخطاب المسؤولة بشكل مباشر عن الخطاب وما يكون فيه من ذوات افتراضية تسمع وترى وتتكلم وهو في هذه الحال يعمل على تصوير حالته الافتراضية وحال المخاطَب الافتراضي مثال ذلك قول سيبويه: ((قلتَ: أرأيتَ قولهم يا زيدُ الطويلَ علامَ نصبوا الطويل؟

قال: نُصب لأنه صفةٌ لمنصوب. وقال: وإن شئت كان نصبا على أعني.

فقلتَ: أرأيتَ الرفعَ على أي شيء هو إذا قال يا زيدُ الطويلُ؟ قال: هو صفةٌ لمرفوع.

قلت: ألستَ قد زعمت أن هذا المرفوع في موضع نصبٍ، فلمَ لا يكون كقوله لقيتُه أمس الأحدثَ؟ قال: من قبل أن كل اسم مفرد في النداء مرفوع أبدا، وليس كل اسم في موضع أمس يكون مجرورا، فلما اطرد الرفعُ في كل مفرد في النداء صار عندهم بمنزلة ما يرتفع بالابتداء أو بالفعل، فجعلوا وصفَه إذا كان مفردا بمنزلته.

قلت: أفرأيت قول العرب كلهم:

أزيدُ أخا ورقاءَ إن كنتَ ثائراً فقد عرضَتْ أحناءُ حقٍ فخاصمِ

لأي شيء لم يجز فيه الرفعُ كما جاز في الطويل؟ قال: لأن المنادى إذا وُصف بالمضاف فهو بمنزلته إذا كان في موضعه، ولو جاز هذا لقلت يا أخونا، تريد أن تجعله في موضع المفرد؛ وهذا لحنٌ. فالمضاف إذا وُصف به المنادى فهو بمنزلته إذا ناديته، لأنه هنا وصفٌ لمنادى في موضع نصبٍ، كما انتصب حيث كان منادى لأنه في موضع نصب، ولم يكن فيه ما كان في الطويل لطوله))(الكتاب : ٢/ ١٨٤)

الثاني: المخاطِب الواقعي الذي يتحدد في زمان ومكان معينين وهو المسؤول عن تنظيم وحدات الخطاب اللغوية وتوزيعها، وهو من تكون له القدرة في التحول من صفة السماع بوصفه متلقيا للخطاب في شكله الشفاهي الى منتج للخطاب بشكله الكتابي ضاما لمادته ومبوبا لأبوابه، ومسؤولا عن قواعده الكتابية.

و صور المخاطِب من حيث العدد يقسم على قسمين:

أ- المتكلم – المرسِل – المؤلف –المخبر- الملقي- المنشئ : وهو من يقدم الى المخاطَب مادة لغوية ، وهو في هذه الحال يعتمد كفايته اللغوية التي تكون كفيلة بالقيام بتركيب الرسالة اللغوية تركيبا سليماً، فضلا عن اعتماد الكفاية التخاطبية التي تتمثل باستعمال المقولات اللغوية بشكل مناسب ولمختلف السياقات." ينظر المعنى وظلال المعنى:١٥٣" **وهذا ما يتمثل بخطاب الشيخ جلال الدين السيوطي في كتابه همع الهوامع إذ قال : ((وَبعد فَإِن لنا تأليفا فِي الْعَرَبِيَّة جمع أدناها وأقصاها وكتابا لم يُغَادر من مسائلها صَغِيرَة وَلَا كَبِيرَة إِلَّا أحصاها ومجموعا تشهد لفضله أَرْبَاب الْفَضَائِل وجموعا قصرت عَنهُ جموع الْأَوَاخِر والأوائل حشدت فِيهِ مَا يقر الْأَعْين ويشنف المسامع وأوردته مناهل كتب فاض عَلَيْهَا همع الهوامع وَجمعته من نَحْو مائَة مُصَنف فَلَا غرو أَن لقبته جمع الْجَوَامِع وَقد كنت أُرِيد أَن أَضَع عَلَيْهِ شرحا وَاسِعًا كثير النقول طَوِيل الذيول جَامعا للشواهد والتعاليل معتنيا بالانتقاد للأدلة والأقاويل منبها على الضوابط وَالْقَوَاعِد والتقاسيم والمقاصد فَرَأَيْت الزَّمَان أضيق من ذَلِك ورغبة أَهله قَلِيلَة فِيمَا هُنَالك مَعَ إلحاح الطلاب عَليّ فِي شرح يرشدهم إِلَى مقاصده ويطلعهم على غَرَائِبه وشوارده فنجزت لَهُم هَذِه العجالة الكافلة بِحل مبانيه وتوضيح مَعَانِيه وتفكيك نظامه وتعليل أَحْكَامه مُسَمَّاة بهمع الهوامع فِي شرح جمع الْجَوَامِع ... وَالله أسأَل أَن يبلغ بِهِ الْمَنَافِع ويجعلنا مِمَّن يسابق إِلَى الْخيرَات ويسارع بمنه وَكَرمه)) (كتاب همع الهوامع :١/ ١٩)**

ب- الجماعة الخطابية : يراد بها الزمر الاجتماعية التي تنتج وتيسر نوعا معينا من الخطابات ، وهذ ما يطلق على جماعة من المتلفظين للخطاب نفسه لا سيما الخطاب التعليمي (ينظر مانغونو، مصطلحات مفاتيح تحليل الخطاب:٢١)، وقيل أن هذا المصطلح يطلق على المتلفظين بالخطاب نفسه لا سيما الخطاب العلمي(ينظر مانغونو، مصطلحات مفاتيح تحليل الخطاب:٢٢) ومثال ذلك الخطاب النحوي التعليمي في كتاب سيبويه، قال القفطي ((وذكر ابن إسحاق النديم فى كتابه قال:"قرأت بخط أبى العباس ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا؛ منهم سيبويه. والأصول والمسائل للخليل".))(كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة:٣٤٧/٢) وفي موضع اخر نقل القفطي رواية تشي بما نريد اثبات صورة للمخاطَب التي اسهمت في تشكل الخطاب النحوي، قيل: ((أخذ النحو عن الخليل بن أحمد الفرهودىّ الأزدي، ولازمه، وتتلمذ له. وقد كان أخذ شيئا من النحو عن عيسى بن عمر الثقفي وعن يونس، وأخذ عن غيرهما. وأخذ اللغة عن أبى الخطاب الأخفش الكبير وغيره، وعمل كتابه المنسوب إليه في النحو، وهو مما لم يسبقه إليه أحد. وقد قيل إنه أخذ كتاب عيسى بن عمر المسمى بالجامع، وبسطه وحشّى عليه من كلام الخليل وغيره، وأنه كان كتابه الذى اشتغل به، فلما استكمل بالبحث والتّحشية

نسب إليه. ويستدلّ القائل بهذه المقالة بما نقل أن سيبويه لمّا فارق عيسى بن عمر ولازم الخليل سأله الخليل عن مصنّفات عيسى بن عمر، فقال له سيبويه: قد صنف نيّفا وسبعين مصنفا في النحو، وأن بعض أهل اليسار جمعها وأتت عليها عنده آفة فذهبت، ولم يبق منها في الوجود سوى تصنيفين؛ أحدهما اسمه الكامل وهو بأرض فارس عند فلان، والجامع، وهو هذا الكتاب الذى أشتغل فيه عليك، وأسألك عن غوامضه. فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه، وقال: رحم الله عيسى! ثم أنشد ارتجالا:

ذهب النحو جميعا كلّه ... غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامع ... فهما للناس شمس وقمر

فأشار إلى الإكمال بالإشارة إلى الغائب في قوله: "ذاك"، وأشار [إلى الجامع] بالإشارة إلى الحاضر بقوله: "وهذا".))(كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة:٢/ ٣٤٦-٣٤٧)

٢- المخاطَب: هو العنصر الثاني في الخطاب ،وشريك المخاطِب في تواصله اللغوي ، وله يتوجه الخطاب ومن خلاله تعرف رود الافعال والتأويلات والتفسيرات، وحضوره مماثل لحضور المخاطِب إن لم يكن اكثر ، لان قبول الخطاب يتوقف على درجة افهامه سواء اكان محاطَبًا واقعيا ام افتراضيا.

اما صور المخاطَب في الخطاب النحوي فكثيرة إذ جعلوا له الكثير من صور المشاهد الحركية المصاحبة للافتراضات القولية والمخاطَب في هذه الحال لا يمكن حصره وعده أي انه غير قابل للعد والحصر في الخطاب النحوي. قال سيبويه : ((ولو رأيت ناساً ينَظرون الهِلالَ وأنت منهم بَعيدٌ فكبَّروا لقلتَ: الهلالَ وربَّ الكعبةِ، أي أبَصروا الهلالَ.)) (الكتاب : ١/ ٢٥٧) ومثله في" باب يكون المبتدأ فيه مُضمَراً" قال سيبويه ويكون المبنى عليه مظهَراً وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: عبد الله وربي، كأنك قلت: ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله. أو سمعتَ صوتا فعرفتَ صاحبَ الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت: زيد وربى. أو مسِسْتَ جسدا أو شممت ريحا فقلت: زيد، أو المِسك. أو ذقتَ طعاما فقلت: العسل.

ولو حُدِّثتَ عن شمائل رجلٍ فصار آية لك على معرفته لقلت: عبد الله. كأن رجلا قال: مررتُ برجل راحم للمساكين بارٍّ بوالديه، فقلت: فلان واللهِ.))(الكتاب :٢/ ١٣٠)

المخاطَب تتفاوت درجة القرب من المخاطِب، فيكون قريبا منه مكانيا وزمانية اي انه في المكان والزمان نفسه وبفعل المشاهدة كـ شيوخ سيبويه ومجايله من العلماء ، ويكون قريبا منه قربا معنويا افتراضيا بلحاظ ذاتية المخاطَب و الاشارات التي تحيل اليه من المشاهدة والرؤية والقول والسمع. ويكون بعيدا عن زمانيا ومكانية اي في الزمن المنظور اليه مستقبلاً.

٣- السياق

يسعى تحليل الخطاب الى ربط الملفوظات بسياقاتها في الاعم الاغلب ، والاحاطة بالخطاب بوصفه نشاطا غير مفصول عن هذا السياق (ينظر مصطلحات مفاتيح تحليل الخطاب:٢٧)، الذي يراد به البيئة الكلامية والسياقات الاجتماعية التي يرد فيه الخطاب، ويرى الدكتور مهدي المخزومي حضور حال المخاطِب وتكون ملحوظة ليقع الكلام في نفس المخاطَب موقع الاكتفاء والقبول (في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٢٥)، لان الامر في ذا ينظر الية من خلال تعاقب الادوار التي يؤديها المشاركون في الخطاب ، وهؤلاء المشاركون يتوزعون بين المخاطِبين والمخاطَبين وهم من مكونات السياق فضلا عن المكان والزمان والغاية ونوع الخطاب وقناته التواصلية فضلا عن اللغة او اللهجة المستعملة والقواعد التي تحكم تداول الخطاب (ينظر مصطلحات مفاتيح تحليل الخطاب:٢٨).

ويقول مقانونو إنَّ السياق ليس جهازاً يمكن للملاحظ الخارجي الاحاطة به ، بل يجب النظر اليه عبر التصورات التي يتصورها المشاركون (٢٩)

ومن الممكن ان نحدد كيفية دراسة السياق داخل الخطاب النحوي

١- تحليل الادوار التي يؤديها المشاركون داخل الخطاب.

مثال على ذلك "مجلس علي بن حمزة الكسائي مع المفضل بحضرة الرشيد

روى الزجاجي أنَّ ابا العباس احمد بن يحي قال : ((روي عن أبي عمرو الشيباني أنه قال: أخبرنا المفضل قال: جاءني رسول الرشيد يوم خميس بكرا فقال لي: أجب. فدخلت عليه ومحمدٌ عن يمينه، والمأمون عن يساره، والكسائي بين يديه باركا، وهو يطارح محمدا والمأمون معاني القرآن، فسلمت فردّ وقال: اجلس. فجلست فقال لي: كم اسمٍ في سيكفيكهم الله؟ قلت: ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين، أولا اسم الله تبارك وتعالى لا إله إلا هو، والثاني اسم النبي صلى الله عليه وسلم، والثالث اسم الكفرة، فالياء والكاف المتصلتان بالسين لله جل عز، والياء والكاف المتصلتان بالهاء للنبي لله، والهاء والميم للكفرة. فقال: كذا أخبرنا الشيخ. وأشار بيده إلى الكسائي، والتفت إلى محمد، فقال له: أفهمت؟ فقال: قد فهمت يا أمير المؤمنين. قال: فأردد ذلك علي، فرده فقال: أحسنت! ثم روى ببصره إلي فقال: من يقول:

نفلق هاما لم تنله سيوفنا ... بأسيافنا هام الملوك القماقم

فقلت: الفرزدق يا أمير المؤمنين. قال: فما أراد بذلك؟ ثم قال: لا، ولكن نفلق هاما لم تنله سيوفنا فيما زعم. قلت: هذا لفظ مدغم يستتر فيه صواب معناه على التقديم والتأخير، وذلك أنه قال: نفلق بأسيافنا هام الملوك القماقم، ثم رجع فقال: ها من لم تنله سيوفنا، على التنبيه والتعجب. قال: صدقت، عندك مسألة. قلت: نعم يا أمير المؤمنين. [قال] : قال الفرزدق:

أخذنا بآفاق السماء عليكم ... لنا قمراها والنجوم الطوالع

قال: قد أفدنا هذا متقدماً من هذا الشيخ علي بن حمزة. القمران: الشمس والقمر، كما قالوا في العمرين، يريدون أبا بكر وعمر. قلت: أزيد يا أمير المؤمنين في السؤال؟ قال: زد. قلت: فلم استحقوا هذا بعد؟ ولم قالوا ذلك؟ قال: لأن من شأن العرب إذا اجتمع شيئان من جنسٍ واحد فكان أحدهما أشهر سمي الآخر باسمه. ولما كان القمر أشهر عند العرب وأكثر في أوقات المشاهد، وتدركه ليلا ونهارا، سموا الشمس باسمه. وهي القصة في تسميتها أبا بكر عمر؛ إذ كانت خلافة عمر أكثر وأشهر في الإسلام للفتوح وطول المدة. قلت: بقي مع هذا زيادةٌ يا أمير المؤمنين. قال: لا أعرفها. ثم التفت إلى الكسائي فقال: أتعرف في هذا أكثر من الذي سمعت؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، هذا الذي [هو] معروف المعنى عند العرب. قال المفضل: فأمسك عني قليلا كالمستعمل فيه الفكرة ثم نظر إلي وقال: أعندك فيه زيادة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وهي فضيلة المعنى والغاية التي جرى إليها، ولولا ذلك ما كان بأولى بالشمس والقمر والنجوم من غيره، ولا يفتخر فيه بما حظ غيره كحظه، الشمس هاهنا إبراهيم الخليل عليه السلام، والقمر النبي صلى الله عليه وسلم، والنجوم أنت يا أمير المؤمنين، وآباؤك من الخلفاء المهديين. فتهلل سرورا ثم قال: أغربت على الرجل محسنا. ثم رفع رأسه فقال: يا فضل. قال: لبيك يا أميري المؤمنين. قال: تحمل إلى منزله الساعة عشرة آلاف درهم، وائذن لمن حضر الباب من الشعراء. ثم وضع لي كرسي وللكسائي كرسي، وأشار إلينا، فجلس كل واحدٍ منا على كرسيه.)) (مجالس العلماء ٣٠=٣٢)

٢- النظر في المكان الذي تأسس فيه الخطاب واثره فيه

مثال ذلك مجلس سيبويه مع الكسائي وأصحابه بحضرة الرشيد قال الزجاجي :((حدثني أبو الحسن قال: حدثني أبو العباس أحمد بن يحيى، وأبو العباس محمد بن يزيد وغيرهما قال أحمد: حدثني سلمة قال: قال الفراء: قدم سيبويه على البرامكة، فعزم يحيى على الجمع بينه وبين الكسائي، فجعل لذلك يوما، فلما حضر تقدمت والأحمر فدخلنا، فإذا بمثالٍ في صدر المجلس، فقعد عليه يحيى، وقعد إلى جانب المثال جعفرٌ والفضل ومن حضر بحضورهم، وحضر سيبويه فأقبل عليه

الأحمر فسأله عن مسألةٍ أجاب فيها سيبويه، فقال له: أخطأت. ثم سأله عن ثانية فأجابه فيها، فقال له: أخطأت. ثم سأله عن ثالثة فأجابه فيها فقال له: أخطأت. فقال له سيبويه: هذا سوء أدب!

قال: فأقبلت عليه فقلت: إن في هذا الرجل حدا وعجلة، ولكن ما تقول فيمن قال: هؤلاء أبون، ومررت بأبين، كيف تقول مثال ذلك من وأيت أو أويت. قال: فقدر فأخطأ. فقلت: أعد النظر فيه. فقدر فأخطأ. فقلت: أعد النظر، ثلاث مرات، يجيب ولا يصيب. قال: فلما كثر ذلك قال: لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره. قال: فحضر الكسائي فأقبل على سيبويه فقال: تسألني أو أسألك؟ فقال: لا، بل سلني أنت. فأقبل عليه الكسائي فقال له: ما تقول أو كيف تقول: قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها؟ فقال سيبويه: فإذا هو هي. ولا يجوز النصب. فقال له الكسائي: لحنت. ثم سأله عن مسائل من هذا النوع: خرجت فإذا عبد الله القائم، أو القائم؟ فقال سيبويه في كل ذلك بالرفع دون النصب. فقال الكسائي: ليس هذا كلام العرب، العرب ترفع في ذلك كله وتنصب. فدفع سيبويه قوله، فقال يحيى بن خالد: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن ذا يحكم بينكما؟ فقال الكسائي: هذه العرب ببابك، قد جمعتهم من كل أوب، ووفدت عليك من كل صقع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل المصرين، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم، فيحضرون ويسألون. فقال يحيى وجعفر: لقد أنصفت. وأمر بإحضارهم، فدخلوا وفيهم أبو فقعسٍ، وأبو زياد، وأبو الجراح، وأبو ثروان، فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه، فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله. قال: فأقبل يحيى على سيبويه فقال له: قد تسمع أيها الرجل. قال: فاستكان سيبويه، وأقبل الكسائي على يحيى فقال: أصلح الله الوزير، إنه قد وفد عليك من بلده مؤملًا، فإن رأيت ألا ترده خائبا. فأمر له بعشرة آلاف درهم، فخرج وصير وجهه إلى فارس، فأقام هناك حتى مات ولم يعد إلى البصرة)) (مجالس العلماء : ٩- ١٠)

٣- النظر في الزمان وسيرورة الخطاب فيه وما مدى الحاجة الى هذا الخطاب في تلك الحقبة

مثال على ذلك النظر في بدايات علم النحو ، قال ابو الاسود الدؤلي : ((دخلت على أمير المؤمنين علىّ- عليه السلام- فرأيته مطرقا مفكّرا؛ فقلت: فيم " تفكر يا أمير المؤمنين؟ فقال: سمعت ببلدكم لحنا، فأردت أن أصنع كتابا في أصول العربيّة. فقلت له: إن فعلت هذا أبقيت فينا " هذه اللغة العربية، ثم أتيته بعد أيام، فألقى إلىّ صحيفة فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كلّه اسم وفعل وحرف؛ فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل.

ثم قال: تتّبعه وزد فيه ما وقع لك. واعلم أن الأشياء "٣٠" ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر؛ وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر.

فجمعت أشياء وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها: إنّ، وأنّ، وليت، ولعلّ، وكأنّ. ولم أذكر لكنّ، فقال: لم تركتها؟

فقلت: لم أحسبها منها. فقال: بلى هي منها، فزدها فيها.)) كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة: (١/ ٣٩)

٤- الغاية من هذا الخطاب على مختلف المراحل التي مر بها .

نجد ابن خلدون يبين لنا الغاية من الخطاب النحوي وعلى مختلف المراحل التي مرَ بها ، ومن خلال ذلك يمكن لنا النظر فيها خطاباً خطاباً لبيان غاياتها وما انتهت اليه ، قال ابن خلدون : ((فلمّا جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الّذي كان في أيدي الأمم والدّول وخالطوا العجم تغيّرت تلك الملكة بما ألقى إليها السّمع من المخالفات الّتي للمستعربين . والسّمع أبو الملكات اللّسانيّة ففسدت بما ألقي إليها ممّا يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السّمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطّردة شبه الكلّيّات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل أنّ الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع. ثمّ رأوا تغيّر الدّلالة بتغيّر حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسمية الموجب لذلك التّغيّر عاملا وأمثال ذلك. وصارت كلّها اصطلاحات خاصّة بهم فقيّدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة.

واصطلحوا على تسميتها بعلم النّحو. وأوّل من كتب فيها أبو الأسود الدّؤليّ من بني كنانة، ويقال بإشارة عليّ رضي الله عنه لأنّه رأى تغيّر الملكة فأشار عليه بحفظها ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة. ثمّ كتب فيها النّاس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيديّ أيّام الرّشيد وكان النّاس أحوج ما كان الناس إليها لذهاب تلك الملكة من العرب. فهذّب الصّناعة وكمّل أبوابها. وأخذها عنه سيبويه فكمّل تفاريعها واستكثر من فيها كتابه المشهور الّذي صار إماما لكلّ ما كتب فيها من بعده. ثمّ وضع أبو عليّ الفارسيّ وأبو القاسم الزّجّاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه. ثمّ طال الكلام في هذه الصّناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصرين القديمين للعرب. وكثرت الأدلّة والحجاج بينهم وتباينت الطّرق في التّعليم وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلّمين. وجاء المتأخّرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيرا من ذلك الطّول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التّسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادئ

للمتعلّمين، كما فعله الزّمخشريّ في المفصّل وابن الحاجب في المقدّمة له. وربّما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصّغرى وابن معطي في الأرجوزة الألفيّة. وبالجملة فالتآليف في هذا الفنّ أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التّعليم فيها مختلفة فطريقة المتقدّمين مغايرة لطريقة المتأخّرين. والكوفيّون والبصريّون والبغداديّون والأندلسيّون مختلفة طرقهم كذلك. وقد كادت هذه الصّناعة تؤذن بالذّهاب لما رأينا من النّقص في سائر العلوم والصّنائع بتناقص العمران ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدّين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصّلة. وتكلّم على الحروف والمفردات والجمل وحذف ما في الصّناعة من المتكرّر في أكثر أبوابها وسمّاه بالمغني في الإعراب. وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلّها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرها فوقفنا منه على علم جمّ يشهد بعلوّ قدره في هذه الصّناعة ووفور بضاعته منها وكأنّه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الّذين اقتفوا أثر ابن جنّيّ واتّبعوا مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشيء عجيب دالّ على قوّة ملكته واطّلاعه. والله يزيد في الخلق ما يشاء)) (**كتاب تاريخ ابن خلدون**: ١/ ٧٥٥-٧٥٦)